واقع التربية والتعليم في المناطق الغير الناطقة بها في الجزائر

أ. جعروم ذهبية

تحظى اللّغة العربية بمكانة متميزة في المنظومة التربوية الجزائرية،التي تستمد مرجعيتها الأساسية من الدستور والقانون التوجيهي للسياسة التربوية الوطنية ٠٤/٠٨ المؤرخ في ٢٣ جانفي ٢٠٠٨م، باعتبارها اللّغة الوطنية والرسمية، ومكونا رئيسيا للهوية الوطنية، ولغة التدريس لكافة المواد التعليمية في المراحل الثلاث من التعليم الأولي،ويؤكد النصان من جهة على الطابع الوطني والديمقراطي والعلمي المتفتح على العصرنة والعالم للمنظومة التربوية وعلى إدماجها في التوجهات العالمية في مجال التربية من جهة أخرى "١"حيث يرمي البعد الوطني إلى تقديم تربية واحدة للجميع، وذلك عن طريق مختلف المؤسسات المكلفة بالعملية التربوية، ويعني ذلك توحيد البرنامج الإجباري على قاعدة مشتركة من القيم والمواقف والكفاءات التي من الضروري ترسيخها بالقيم التي يمثلها الإرث التاريخي والجغرافي والدّيني والثقافي، كذلك الارتباط بالرموز الممثلة للأمة الجزائرية وديمومتها من خلال تدعيم الوحدة والهوية والثقافة الوطنية بالتفاعل بين المركبات الثلاث :العروبة والإسلام والأمازيغية.غير أن بعد الالتحاق بالتعليم العالي نجد بعض من التخصصات تستغني عن اللغة العربية كون اللغة العلمية التي تستخدمها بعض العلوم الدقيقة والفيزيائية عاجزة عن التعبير عنها باللغة العربية، مع كون المؤطرين لهذه التخصصات العلمية يجيدون اللغة العلمية (الإنجليزية والفرنسية) أكثر من اللغة العربية، لكن السنوات الأخيرة من التعليم الجامعي حظيت بعض التخصصات تعليمها باللغة العربية مثل الإحصاء والعلوم الاقتصادية والعلوم الميكانيكية والهدف هو تعميم تدريس اللغة العربية بجميع أطوارها الأربعة مع تحديث المناهج وعصرنتها بالوسائل وطرائق العمل٢.

إن تكريس ودعم تدريس اللّغة العربية في مرحة التعليم الابتدائي يهدف أساسا إلى إكساب المتعلم أدوات التواصل مع غيره في محيطه، وتعزيز رصيده اللّغوي الذي اكتسبه من محيطه الأسري والاجتماعي.غير أن الإشكال المطروح حول تدريس اللّغة العربية في بعض المناطق من الدولة الجزائرية بمثابة بداية لتعلم لغة أجنبية أولى لأهل المنطقة بعد لغة الأم والتي تتمثل في اللغة الأمازيغية التي لم يعترف بها كلغة رسمية للدولة، بل هي لغة قومية. أما الفرنسية فهي كاللغة الإنجليزية تدرس وتعلم بالمدارس الجزائرية كباقي الدول العربية.

وقبل الحديث عن واقع تعليم اللغة العربية في مناطق القبائل بالجزائر يجب العودة الوقوف عند محطات هامة من تاريخ الجزائر بصفة عامة قبل الاحتلال الفرنسي للبلد وأثناء الوجود الاستعماري لإبراز مدى تفتح شعب المنطقة على مختلف العلوم والفنون وكل ما يتعلق بالآداب المحلية والوطنية منها والعالمية،مما سمح لأهل المنطقة بأن ينهلوا من المعرفة ويصبحوا قادرين على الاندماج في العالم بمختلف اللّغات دون الشعور بالعنصرية تجاهها.والفضل يعود في ذلك إلى الزوايا و الأفراد مما صرح به " ديتشي " المسؤول عن التعليم العمومي بالجزائر في قوله : " كانت المدارس بالجزائر والمدن الداخلية، وحتى في أواسط القبائل كثيرة ومجهزة بشكل جيد، وزاخرة بالمخطوطات، ففي مدينة الجزائر هناك مدرسة بكل مسجد يجري فيها التعليم مجانيا ويتقاض أساتذتهم أجورهم من واردات المساجد.

رأى الفرنسيون أن اللّغة العربية هي إحدى أبرز مقومات الشخصية الجزائرية، وأن بقاء هذه اللغة يعرقل أهدافهم الاستعمارية ولهذا عمدوا إلى القضاء عليها بمختلف الوسائل، ولتفكيك بنية المجتمع الجزائري لجأت السلطة الاستعمارية إلى انتهاج سياسة " فرق تسدّ " حيث ركز الفرنسيون جهودهم على منطقة القبائل الكبرى خاصة منطقة "الإربعاء ناث إيراثن " المعروفة ببطولات" فاطمة نسومر " التي قضت على عشرة جينيرالات فرنسي إلى أن لقبوها ب"جندرك الجزائر" إذ ظهرت في

هذه المنطقة صورة مغايرة لباقي مناطق الجزائر مؤداها أن سكان هذه المنطقة هم أقرب إلى الأوروبيين منهم على العرب، وعليه يجب فرنستهم وإعادتهم إلى النصرانية التي كانت سائدة بينهم خلال العهد الروماني وفي ١٢ فيفري ١٨٧٣ اقترح الضابط العسكري قائد دائرة "الأربعاء ناث إيراثن " في وضع مخطط لفرنسة المنطقة من خلال إلغاء المدارس العربية الفرنسية نهائيا واستعمال كل الوسائل لإبعاد تأثير الزوايا من أجل جعل المنطقة تحت السلطة الكاملة للفرنسيين. كما منح الحاكم العام كل التسهيلات للكردينال لافيجري من أجل فتح مدارس حرة في هذه المنطقة.وفي ٩نوفمبر ١٨٨١ صدر مرسوم قرّر إشاء ثمان مدارس في منطقة القبائل، وهكذا أنشا الآباء البيض(waith fathers) مدارس عديدة في المنطقة تابعة لوزارة التعليم الفرنسية وكان الهدف منها ليس من أجل تثقيف أهل المنطقة بل لتحضير البعض للعمل الإداري والترجمة داخل الإدارة الجزائرية قصد التعجيل بالإندماج الذي مفاداه جعل الجزائريين يتمتعون بحق التعليم مع الأوروبيين في جميع المجالات وأن بلادهم تعتبر جزءا لا يتجزأ من الوطن الفرنسي الأم ٣، وتولي الوظائف بالطرق التي يخولها القانون الفرنسي. وقد تخرج فعلا من هذه المدارس المختلفة جزائريون مختصون في الصحافة و التعليم والترجمة والقضاء و الإمامة وغيرها ، أي تلك الدراسات كانت مكرسة من أجل أن يكون الإقليم الجزائري جزء من الأراضي الفرنسية وأن الجزائر تمثل ثلاث مقاطعات فرنسية فيما وراء البحر المتوسط ٤، غير أنه بدأ عدم تطبيق سياسة الدّمج التامة بين الطرفين نظرا لمعارضة المعمرين وبعض الساسة الفرنسيين، بل طبقت عليهم سياسة عنصرية الهدف منها القضاء على العنصر الأهالي وطرده نحو الصحراء والمناطق القاحلة.ومنه صدر بعد ذلك ماسمي بقانون الأهالي بعد اندلاع مقاومة ١٨٧١م الذي أعقبه إنشاء المحاكم الردعية حيث عملت السياسة الفرنسية على تغيير أسماء بعض المدن والشوارع بأسماء فرنسية وتزويد الجزائريين بألقاب جديدة سنة ١٨٨١م. والإشكال المطروح إلى أي حد يمكن تفسير مدى تشبث سكان المنطقة بمقومات الشخصية الجزائرية بما فيها الحفاظ والاستمرار في تعليم وتعلم اللغة العربية رغم تلك السياسة الاضطهادية التي يمارسها المستعمر على سكان القبائل الكبرى،في الوقت الذي يعتبرونها لغة دخيلة على المجتمع شأنها شأن اللغة الفرنسية التي تمثل لغة العدو ؟ فكيف هو واقع تعليم اللّغة العربية في منطقة القبائل،وما هو التحول الذي عرفته هذه اللّغة في المنطقة بعد استقلال البلاد وبعد الإصلاحات التربوية التي عرفتها المنظومة التربوية للوطن؟

استطاعت المدرسة الفرنسية في منطقة القبائل الكبرى كما سماها المستعمر، عن طريق سياستها التعليمية، التي شوهت تاريخ الجزائر، وقدمت التاريخ الفرنسي على أنه التاريخ الوطني، أن تكوّن فئة من الجزائريين المتنكرين لأمتهم الإسلامية واندمجت في الحضارة الأوربية وتجنست بالجنسية الفرنسية، ورغم هذا تبقى جهود أفراد المنطقة وأغلبيتهم دافعوا عن مقومات المنطقة خاصة الدّين الإسلامي الذي يعتبر الموروث العقائدي الذي وجدوه عند أجدادهم وللحفاظ على هذا الموروث عمل سكان المنطقة على تعزيز وتكثيف المدارس القرآنية التي أقامها الشعب بتبرعاته الخاصة لتعليم أبنائه مبادئ اللغة العربية والدين الإسلامي، والتاريخ الوطني. ووضعوا مخططا محكما لضمان التسيير المحكم، حيث يذهبون صباحا باكرا إلى المدرسة القرآنية، وبعد العودة منها وقت فطور الصباح يتوجهون بعدها إلى المدرسة الرسمية الفرنسية التي يقضون فيها طول النهار، وفي المساء يعودون إلى المدرسة القرآنية، هذا وإن دل على شيء إنما يدل على مدى تمسك سكان المنطقة بضرورة تعليم أبنائهم القرآن الكريم واللّغة العربية في آن واحد لأن هذه الأخيرة تعتبر آنذاك اللغة الأجنبية الأولى لأهل المنطقة، وكونها اللغة التي نتعلم بها كلام الله فلم يبدوا لها أية عنصرية أو انزعاجا نحوها، بل بالعكس حرصوا على مدى تعلمها رغم كل تلك العواقب التي مارستها السياسة الاستعمارية المتمثلة إصدار قانون يحظر على الجزائريين فتح أية مدرسة أو كتاب قرآني إلا بترخيص خاص من الإدارة ٥، والطرد من أراضيهم نحو المناطق القاحلة وتجريدهم من أموالهم ٦، بل عملوا على صيانة وحصانة تراثهم المتمثل في اللغة العربية والدين الإسلامي بدون منازع ،واستمرت الأوضاع على نفس الوتيرة خلال كل الحقبة الاستعمارية إلى أن نالت الجزائر استقلالها، فلم يتمكن المستعمر القضاء على الثقافة الوطنية للشعب الجزائري عامة وبالخصوص سكان منطقة القبائل أو ما نسميهم بالشعب

الأمازيغي المعروف منذ القدم بتفتحه على اللّغات الأجنبية امتثالا لقول الرسول (ص) " من تعلم لغة قوم آمن شرهم " وبالفعل هذه هي الميزة التي تميز بها سكان المنطقة منذ الاحتلال الفرنسي،فبالرغم من دفاعهم عن مقومات وهوية الشخصية الجزائرية ضد المحتل الذي حاول طمسها بكل الوسائل، إلا أنه لم يبدي البغض والعنصرية للغة الفرنسية بل واضب على تعلمها بجدية لاتخاذها وسيلة لمحاربة المستعمر ويشهد التاريخ على مقولة الكاتب الجزائري الفذ "مولود فرعون" في كتابه -الأرض والدم-مخاطبا المستعمر الفرنسي في قوله : " أكتب باللغة الفرنسية وأتحدث بالغة الفرنسية، لأقول للمستعمر أنا لست فرنسيا " ٧

من خلال هذا القول نفهم أن أمازيغ الجزائر متفتحينّ على اللّغات الأخرى من غير لغتهم الأصلية إلى أن تم تحررهم من قبضة الاستعمار الذي تكالب على هذا الوطن منذ القرون الماضية.

فبعد الاستقلال مباشرة سنة ١٩٦٢ م عرف النظام التربوي الجزائري تطورا يختلف من مرحلة لأخرى حسب معطيات كل حقبة زمنية معينة، فالمرحلة الأولى لاتشبه مرحلة الثمانينات أو التسعينات، فبعد الاستقلال مباشرة عرفت الجزائر مشاكل عديدة في هذا المجال من تخلف وجهل وأمية وفقر وأمراض...ألخ ومنظومة تعليمية أجنبية أهدافها وغاياتها بعيدة كل البعد عن أهداف المنظومة الوطنية الجزائرية، فعملت على تنصيب أوّل لجنة وطنية لإصلاح التعليم في ١٥-٠٩-١٩٦٢م ونشر تقريرها في نهاية سنة ١٩٦٤م،من أهم التوصيات التي وردت في هذه اللّجنة مضاعفة الساعات المخصصة للّغة العربية في كل المراحل التعليمية وذلك بإعادة النظر في لغة التدريس، وبناء المدارس في كل ربوع الجزائر تعميما للتعليم وديمقراطيته ومن هنا برزت الأهداف الأساسية الثلاثة وهي التعريب، ديمقراطية التعليم، الاختيار العلمي والفني والهدف كان واضح وجلي يتمثل في استعادة الأصالة والمحافظة على الشخصية الإسلامية العربية.ونشر التعليم على نطاق واسع بين الجزائريين للالتحاق بركب الدول المتقدمة تكنولوجيا، من خلال إعادة النظر في مناهج التدريس الموروثة واستبدالها بأخرى، كما عملت على فتح مدارس لكل طفل بلغ سن التمدرس مما كرس ديمقراطية التعليم و مجانيته ومدته ست سنوات كاملة وقد ارتفع عدد التلاميذ إلى ٧٧٤٠٨٠٠ في سنتي ٦٣/٦٢ على ٦٩/٦٨م، ٨ولا يمكن تحديد مكانة ووظيفة اللغة الفرنسية إلا في إطار الاختيار السياسي الذي يعيش طرق تحول نظام التعليم في الجزائر الذي يقوما أساسا على :

أ- التعريب : Arabisation'ايفرض أن الفرنسية هي من الآن فصاعدا لغة أجنبية، وستصبح العربية أساسا لغة الثقافة، أما الفرنسية تبقى وظيفتها فقط وسيلة الاتصال.

ب- الجزأرة : Coppération يقصد منها الإلغاء التدريجي للتعاون وضرورة إعادة النظر في البرامج حسب المشاكل والأهداف الوطنية.

ج- الدمقرطة: تلزم بالتعليم المكثف والسريع للأطفال وكذلك تحويل المضمون الإديولوجي للبرامج ومناهج التعليم.

د- تطور التعليم العلمي والتقني : فهو يلزم من جهة ضرورة نشر ثقافة عقلانية وحديثة للتلاميذ، والتحكم بصورة فعلية باللّغة الفرنيسة، من حيث أنها لغة ناقلة للعلوم والتكنولوجيا من جهة أخرى،٩ ومع هذه الحركة المكثفة للتعليم، تعممت عملية التعريب في التعليم الابتدائي ووصلت إلى التعليم الثانوي والتعليم العالي، وتكونت نماذج ثقافية جديدة، وقد عرفت المواد الثقافية لجيل الاستقلال تغير حقيقي واستبدلت الحضارة الفرنسية بالحضارة العربية والإسلامية من حيث هي مركز للاستناد الثقافي.

وهكذا توالت الإصلاحات التربوية منذ الاستقلال في شكل أربع مراحل متتالية وآخرها من سنة ٢٠٠٠ إلى ٢٠٠٧م ويبرز فيها إصلاح نظام التربية الوطنية حيث تم تنصيب لجنة الإصلاحي في ٠٩ماي ٢٠٠٠م وتنصيب لجنة إصلاح التعليم موسم ٢٠٠٣/٢٠٠٤ ومن مظاهر الإصلاحات مايلي :

- إدراج اللغة الفرنسية من السنة الثانية ابتدائي وأعيد النظر في هذا الأمر موسم ٢٠٠٦م/٢٠٠٧م
- إدراج الترميز العلمي والمصطلحات العلمية
- إدراج مادة الإعلام الآلي ببدء من السنة الأولى من التعليم المتوسط وتدعيمه في التعليم الثانوي بأن يصبح باسم مادة تكنولوجيات الإعلام والإتصال.
- التكفل بالبعد الأمازيغي الذي عرف في السنوات الأخيرة محطة هامة من التغيرات التي عرفتها المنظومة التربوية الجزائرية خاصة في منطقة

القبائل الكبرى التي عرفت نظالاً مريرًا منذ فجر الاستقلال، حيث عرفت القضية الأمازيغية نقطة تحول هامة في تاريخ المنظومة التربوية منذ سنة ١٩٨٠م و٢٠٠١م أين أعلن سكان المنطقة مقاطعة تدريس اللغة العربية في المنطقة ما لم تدرس اللغة الأمازيغية بالموازاة لها سنة ١٩٩٤-١٩٩٥ وهي السنة البيضاء التي شهدتها المنطقة في النمظومة التربوية.

وهذا ليس بالعنصرية أو المقت للغة القرآن الكريم، بل هو نضج وعي من أجل استرجاع الهوية الوطنية الأصيلة في هذا الشعب،المسلوبة منه منذ الفتوحات الإسلامية في شمال إفريقيا عامة ومنذ استقلال المغرب الأوسط (الجزائر) عن المغرب الأدنى والمغرب الأقصى خاصة. أما مشكل الهوية والحضارة والعرقية لم يكن الشغل الشاغل للأمازيغ أثناء الفترة الاستعمارية، بل كان همهم الوحيد هو القضاء على المحتل الأجنبي، وتمسكهم بثوابت الأمة الإسلامية والشخصية الوطنية التي لا تذوب مهما كان الظروف السياسية والتاريخية، وبالفعل نجد التاريخ يشهد على سكان المنطقة " البربر" كما سماهم الإغريق والرومان أو الأمازيغ لأنهم يمثلون سكان شمال إفريقيا الأصليون.أنهم شعب استعرب الإسلام جزء منهم واحتفظ آخرون بلغتهم ومنهم من ظل يكتبها بحرف التيفيناغ إحدى أقدم الكتابات في التاريخ. ويتحدث الأمازيغ لهجات متعددة منتشرون على الرقعة الجغرافية للجزائر حاليا،كما يشهد عليهم التاريخ أنهم اعتنقوا ديانات عدة، واحتضنوا الإسلام واثروا حضارتهم لما أكملوا الرسالة المحمدية بنشرها من خلال حملة القائد الأمازيغي العظيم " طارق بن زياد" وجيشه فاتحا للأندلس، ورغم أن الجزائريين لم يؤلفوا كثيرا في علوم اللّغة إلا أنهم اهتموا بالنحو حيث تركزت الدراسة على زواوة باعتبارها مدرسة لعلم النحو ومازالت قائمة إلى يمنا الحالي ١٠ ضف إلى ذلك أن علماء ومشاهير على امتداد الحضارة الإسلامية كانوا من أبناء ثمازغا الأصليين، فالعلامة " ابن خلدون " تحدث في مقدمته على مدى تشبث الأمازيغ بالإسلام، وليسوا أقل تمسكا بالأرض ودورهم مشهود في حركات التحرر والمقاومة في بلدان المغرب الكبير

لكن مقاربة سلطة مابعد استقلال الجزائر عرقلت الحل وامتدت في عمر الأزمة، إنها عقود من الصّدام مع السلطة أو هي كما يسميها الأمازيغ رحلة طويلة من النّظال والتضحيات، وهنا برزت مع البدء منطقة القبائل الكبرى كأكثر مناطق الأمازيغ نشاطا في المطالبة بالحقوق السيّاسية والثقافية، وكانت القوة الدافعة لما يسمى بالربيع الأمازيغي سنة ١٩٨٠م لما منُع الكاتب الكبير " مولود معمري " من إلقاء محاضرته حول الهوية الوطنية باللّغة الأمازيغية في جامعة تيزي وزو التي تحمل اسمه حاليا.ومنه تعفنت الأوضاع حتى تلاه الربيع الأسود سنة ٢٠٠١م ١١ الذي خلّف استشهاد مئات الشبان في زهرة العمر ذنبهم الوحيد يطالبون السّلطة بالاعتراف بهويتهم التي لن يتمكن الاستعمار المتكالب على أرض هذا الوطن من طمسها ونفيها ليجد الأمازيغي الأصل يضطهد في عقر داره من أجل استرجاع لغته المسلوبة ويكتفي باللغة الأجنبية عليه،وهذا ما أثار استياء سكان منطقة القبائل في الجزائر١٢.

بعد تلك الأحداث الدامية والّاستقرار في المناطق التي يمثلها أكبر نسبة الأمازيغ ارتقى النظام الجزائري باللّغة الأمازيغية إلى لغة وطنية في تعديل دستوري،حيث أصبحت مادة تعليمية خصص لها حيزا في الإعلام الحكومي، لكن مطالب ترسيم اللغة الأمازيغية لم تتوقف إلى أن تمكن الدستور الجزائري ولأول مرة اعتمادها لغة رسمية شانها شأن اللّغة العربية، وتضع آليات للنهوض بكل تنوعاتها اللّسانية، من جراء هذا الحدث التاريخي الذي حققه النّظال السّياسي الأمازيغي،سارع البعض إلى اعتبار الأمر مناورة سياسية لاستمالة قطاع من الشعب ثائرا بطبعه لكن الآخرين استبشروا بالتعديل الموعود خيرا وراو فيه إنجازا للحركة الأمازيغية في الجزائر. وهذه الخطوة التاريخية من جعل اللّغة الأمازيغية تدرس في المدارس الابتدائية والجامعات الجزائرية يعتبر مكسبا ثمينا للأمازيغ في وطنهم، غير أن هذا لا يعني إلغاء اللّغة العربية أو تهميشها، بل ازدادت وزنا وشأنا كبيرا عند القبائل،لأن تنمي الرّوح القومية ونضج الوعي لدى أهل المنطقة هو الذي دفع بالأحداث على وقوعها فهل من المعقول والمنطقي التخلي عن الهوية الأصلية واعتناق هوية أجنبية، فاللغة العربية اعتنقها السكان منذ الفتوحات الإسلامية كما سبق لنا الذكر آنفا،حتى أسفر الأمر على نفي ذاته، في الوقت الذي كان يحارب الاستعمار الفرنسي على ضرورة وأهمية التمسك بالثوابت الوطنية، وهذا هو التناقض الذي أدركه القبائل مباشرة بعد التعديلات التي

أدخلت على المنظومة التربوية الجزائرية بعد الاستقلال من خلال تعزيز وتكثيف تدريس اللغة العربية وغياب الاهتمام باللغة الأمازيغية،وبالفعل تم تدريس اللغة العربية على كامل أرجاء الوطن دون استثناء، وتقبلها القبائل دون أية عنصرية اقتناعا منهم أنها لغة القرآن الكريم،وقد تعاملوا بها في المؤسسات والمساجد والقطاعات المختلفة دون إحراج حيث يتعلمونها منذ البداية كلغة أجنبية عليهم مثل باقي اللغات الأجنبية الأخرى كالفرنسية والانجليزية، فلا يجدون فيها صعوبة، بل بالعكس نجد نتائج الامتحانات الرسمية في هذه المنطقة تفوق بجدارة على نتائج المناطق التي يتكلمون فيها باللغة العربية إذ تشهد إحصائيات نتائج الباكالوريا لمنطقة تيزي وزو للسنة الدراسية ٢٠١٦/٢٠١٧م الأولى على مستوى كامل التراب الوطني للمرة التاسعة على التوالي،حيث بلغت نسبة النجاح ب٨٢،٧١من المئة منها ١٣تلميذا تحصلوا على معدل يفوق ١٨من ٢٠و٦٨ تلميذا تحصل على معدل يفوق ١٧من ٢٠ منهم ٢٠،١٤ من المئة تحصلوا على هذه الشهادة بتقدير "جيد" فأكثر،وسجل ١٠آلاف و٥٩٥تلميذ ناجح في هذه الشهادة "٦٧٢٢إناث و ٣٨٧٣ ذكور "من أصل ١٤ألفا و٧٥٣ تلميذ ممتحن، وبفضل هذه النتائج المحققة تمكنت الولاية من المحافظة على ترتيبها في الصدارة على المستوى الوطني للمرة التاسعة على التوالي١٣.وحسب مديرية التربية للولاية، فإنه علاوة على العدد الهام من التلاميذ الذين تحصلوا على هذه الشهادة، فقد كانت النوعية هي الأخرى في الموعد، حيث تحصل ما لايقل عن ٢١٣٤ ناجح على معدل يساوي ١٤ من ٢٠ أو أكثر. ومن أصل ٢١٣٤ ناجح متفوق، تحصل ١٣ على معدل يفوق ١٨ من ٢٠، و٦٨ناجحا على معدل يفوق ١٧ من ٢٠ و٢١٧ناجح على معدل يزيد عن ١٦ من ٢٠، و٦٤٦ناجح على معدل يزيد عن ١٥ من ٢٠،و١١٩٠على معدل يفوق ١٤ من٢٠، كما تحصل ٢١٧٩تلميذ ناجح على شهادة الباكالوريا بتقدير قريب من الجيد وذلك بمعدل يتراوح بين ١٢ و١٤ من ٢٠. وتصدرت الفتيات وشعبة العلوم التجريبية المراتب الثلاث الأولى للناجحين بالولاية، حيث عادت المرتبة الأولى للتلميذة "بوستوة نسرين " من تيزي وزو بمعدل ١٨،٨٦من ٢٠، متبوعة ب " شافاي تينهينان " بمعدل ١٨،٦٩من ٢٠ و"ساب ليلى" ١٨،٦٧من ٢٠.وفيما يتعلق بالمؤسسات التي حققت أعلى نسبة نجاح، فقد عادت لثانوية " ديواني محمد سعيد " بماكودة بنسبة ٩٤،٢٣من المئة، وثانوية " بني زمنزر " بنسبة ٩٢،٧٥ من المئة، وثانوية " عدلاني عمار" بمعانقة بنسبة تفوق ٨٩،٨٩ من المئة. هذا إن دلّ على شيىء،إنما يدل على تفتح أهل المنطقة وحبهم للعلوم بأية لغة دون تميز، فقط أن يكون هناك حضور للّغة الأمازيغية في منظومتنا التربوية.

فإقليم القبائل في الجزائر يعرف من الفينة إلى الأخرى تعليق الدّراسة بسبب الأمازيغ حيث أغلقت المؤسسات التربوية والجامعية أبوابها في كل من الولايات الآتية : البويرة –تيزي وزو –وبجاية وباتنة، وعلقت الدراسة فيها إلى ما يقارب شهرا كاملا، إحتجاجا على رفض البرلمان المصادقة على مقترح تعميم اللغة الأمازيغية التي تمت دسترتها كلغة رسمية في البلاد وسط مخاوف من تصاعد وتوسع الاحتجاجات وتحولها إلى أعمال العنف.١٤

وطوال هذا الأسبوع من تعليق الدراسة، نظم آلاف الطلبة والمواطنون بالولايات المذكورة مسيرات شعبية حاشدة للتنديد بموقف البرلمان المعادي لتعميم الأمازيغية على مستوى التراب الوطني، مطالبين بوضع اللغة الأمازيغية جنبا إلى جنب اللّغة العربية وتعميم تدريسها على مختلف المؤسسات العامة والخاصة، من أجل توفير مناصب شغل لخريجي الطلبة الجامعيين الحاملين لشهادات التخرج شعبة اللّغة الامازيغية الذين يعانون البطالة.

وتحولت هذه المسألة إلى قضية رأي عام في الجزائر، وانتقلت الاحتجاجات من الشوارع إلى مبنى البرلمان أين تصاعد النقاش بين الأحزاب الموالية للّسلطة والمعارضة لها خلال عقد جلسة طارئة حول اللّغة الأمازيغية، حيث تعتبر الأولى –الاحزاب الموالية- أن الجزائر من خلال التعديل الدستوري الأخير في فبراير ٢٠١٦م، انهت الجدل بخصوص المطالب الأمازيغية بعد الاعتراف بها كلغة وطنية ورسمية، والتعهد بترقيتها إلى جانب اللغة العربية. بينما ترى المعارضة أن مطلب الأمازيغ بتعميم استعمال لغتهم مطلب مشروع يجب المصادقة عليه، ولا تبقى اللغة حبيسة المنطقة التي يتكلم بها سكانها فمثلما تدرس اللغة العربية في كامل التراب الوطني، تدرس الى جانبها اللغة الأمازيغية التي تمثل اللغة الأصلية لشمال إفريقيا من شرقه الى غربه ومن شماله نحو جنوبه.١٥

وفي هذا السّياق، قال النائب عن

حزب العمال في البرلمان الجزائري، رمضان تعزيبت : " إن ترقية اللّغة الأمازيغية مطلب وطني وليس حزبيا أو فئويا، مبينا أن النضال سيبقى مستمرا إلى أن تدرس الأمازيغية في جميع الولايات من التراب الوطني مثلها مثل اللغة العربية والفرنسية والإنجليزية.."

وأكد السيد رمضان تعزيبت أن المؤسستين التنفيذية والتشريعية مطالبتان بالرد على مطالب المحتجين " الشرعية " وذلك عن طريق ترقية الأمازيغية، معتبرا أن اللّغة كانت ضحية التقشف بعد تقليص ميزانية قطاع التربية سنة ٢٠١٨م.١٦

من جانبه اعتبر رئيس المجموعة البرلمانية لحزب التحرير الوطني، سعيد لخضاري، أن التكفل بالأمازيغية ورد في الدستور، وبالتالي لا يمكن تقزيمها ووضعها في قانون المالية، مشيرا إلى أن رفض التعديل المقترح لم يكن ضد الأمازيغية أو تطويرها، داعيا إلى ضرورة الهدوء والتعقل ووقف الاحتجاجات في منطقة القبائل.

ويبدي الأمازيغ امتعاضا متواصلا في الجزائر من تهميش لغتهم ومن عدم اهتمام الدولة بموروثهم الثقافي، وذلك بالرغم من د سترتها واعتبارها لغة رسمية في البلاد إلى جانب اللغة العربية، لكن هذه الخطوة لم تطبق على أرض الواقع وبقيت اللّغة منحصرة في الولايات المذكورة سابقا، أي حبيسة المنطقة التي تتحدث بها، بحسب تعبيرهم، في وقت يعتبر فيه جزء كبير من الجزائريين أن هذا المطلب لا يندرج في دائرة اهتمامات المواطنين في الوقت الحالي نظرا للمشاكل الداخلية التي تتخبط فيها البلاد كالفساد ومستقبل السلطة والوضع الاقتصادي.

هذا عن الصراع المحتدم بين السلطة والأمازيغ حول قضية إعادة إحياء اللّغة الأمازيغية وترقيتها في البلاد شانها شأن اللّغة العربية، التي تبقى تحتل الصدارة في جميع المواد التعليمية بكل أطواره.

هكذا نتوصل إلى استنتاج أن الهوية الوطنية ومقومات الشخصية الجزائرية التي تعرضت منذ قرن وربع إلى محولة طمسها وتدنيسها من طرف السياسة الاستعمارية، قد فشلت في فرنسة الجزائريين وتجنيسهم ودمجهم في فرنسا بكل الوسائل الممكنة على الجزائريين ولكن بدون جدوى، والفضل الأكبر يعود إلى تلك المجهودات المحمودة والفعالة التي بذلتها معاهد التعليم في كتاتيب قرآنية، وزوايا وجوامع ومدارس عصرية، ونواد وطنية عرفت منذ الوهلة الأولى بقوة في منطقة القبائل الذين هم أكثر فئات الشعب تشبثا بمقومات الوطنية المتمثلة في الإسلام والأمازيغية والعروبة، والواقع يجسد ذلك في أنه يوجد بهذه البلاد أكثر من ثلاثين زاوية موزعة على سائر البلديات. لتدريس علوم الدين الإسلامي المرتبط بتدريس اللغة العربية، رغم وجود تلك الفئات التي تمارس سياسة الترويج للعنصرية والمعاداة لكلا الطرفين (اللغة والإسلام) في هذه المنطقة بحجة أن سكانها يميلون في ثقافاتهم وسلوكاتهم وحتى في دينهم للثقافة الأوروبية خاصة منها الفرنسية. إلا أن الواقع يفند ذلك إذ نجد تلاميذ مدارس المناطق غير الناطقة باللغة العربية يجيدونها بنسبة علية وبمستوى أجود يفوق بكثير مستوى تلاميذ المناطق الناطقة بها كونها لغة الأم لهم.فهم يدرسونها منذ البدء لغة أكاديمية فصيحة، أي دون دمجها ومزج مصطلحاتها باللّغة الدارجة المتداولة خارج أسوار المدارس خاصة في المرحة الأولى من التعليم الإبتدائي إلى جانب تسجيل التفوق الكبير في إتقان اللغات الأجنبية الأخرى خاصة الفرنسية التي تعتبر بمثابة عنوانا لسكان المنطقة من طرف الجهات الأخرى من أرض الوطن. بالإضافة إلى اللغة الإنجليزية واللغة الأمازيغية التي هي اللغة الأصلية لسكان المنطقة، حتى ولو أنها تدرس في بعض من الولايات فقط، ومشروع تعميمها لايزال محل جدال بين السلطات الوصية، وهذه هي الميزة التي ينفرد بها قبائل الجزائر عن باقي سكان الوطن أنهم متفتحين على طلب العلم وعدم التّعصب والتقليل من شأن اللغة العربية كونها لغة الدين الإسلامي، وأنها اللغة الوطنية والرسمية الأولى للبلاد، على خلاف ما يروّج بالسلب لسكان المنطقة والبرهان على ذلك تلك النتائج الممتازة التي تحقق في المنطقة على غرار المناطق الأخرى من الوطن رغم تلك الاضطرابات وشل المؤسسات التربوية من حين لآخر، إلا أن ذلك يزيدهم حزما وعزما على الاحتفاظ بالرّيادة في نتائج الامتحانات الرّسمية نهاية كل موسم دراسي.

قائمة المراجع :

١- محمد الصالح حثروبي.الدليل البيداغوجي لمرحلة التعليم الابتدائي وفق النصوص المرجعية والمناهج الرسمية،دار الهدى للنشر والتوزيع ط١ ٢٠١١ ص١٤، ١٥

٢- د/ عثمان سعدي، التعريب في الجزائر كفاح شعب ضد الهيمنة الفرنكفونية، شركة دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع الجزائر، بدون سنة النشر ص ٩٢.

٣- د/تركي رابح،التعليم القومي والشخصية الوطنية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ط١ ١٩٧٥ ص١١٤

٤- المرجع نفسه ص ١١٥

٥- المرجع نفسه ص ١١٦

٦- د/غريب منية،بحث مقدم من طرف الطالب زيتوني،حول تطور النظام التربوي الجزائري منذ الاستقلال إلى يومنا،المركز الجامعي الطارف قسم علم الاجتماع (الجزائر) بدون سنة ص١٠

٧- مولود فرعون، الأرض والدّم، ط١

٨- د/غريب منية، المرجع السابق ص١٥

٩- د/عبد القادر جغلول،تاريخ الجزائر الحديث دراسة سسيولوجية،تر فيصل عباس،دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت الطبعة الثانية سنة النشر ١٩٨٢م

١٠- د/ابو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن الرابع عشر الهجري ج٢ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر سنة ١٤٠١ه-١٩٨١م ص٢٣٥.

١١- العربية –نت – بقلم منية غانمي، الأربعاء ٢٥ربيع الأول ١٤٣٩ه ١٣ ديسمبر ٢٠١٧ م

١٢- العربية –نت- المرجع نفسه

١٣- العربية –نت –بقلم منية غانمي، المرجع السابق نفسه.

١٤- العربية نت،المرجع نفسه ص ٢من٣

١٥- المرجع نفسه ص٣من٣

١٦- المرجع نفسه ص٣من٤